مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية في شمال إفريقيا المجلد 05 العدد03 جوان 2022 من ص: 210ـ222
ر س ع و (ISSN): 2602ـX618 / ر س ع و إ (E-ISSN): 2710ـ8031

التجليات الدينية لعمارة بلاد المغرب الإسلامي

Religious manifestations of the architecture of the Islamic Maghreb

مقني بن عودة [1]♦، بمينة بن صغير حضري [2]

[1] جامعة غرداية meguennibenouda@gmail.com

[2] جامعة غرداية bensghryami@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2022/02/15	تاريخ القبول: 2022/05/25	تاريخ النشر: 2022/06/15

الملخص باللغة العربية:

يتمحور موضوع هذه الدراسة حول العمارة في بلاد المغرب الإسلامي، من حيث الأصل والتأثير من جهة، ومن حيث التوجيه الديني في البناء والفن والزخرفة والهندسة من جهة أخري، وكان السبق لعمارة بلاد المغرب هو التوجيه الديني، فيتدخل الدين منذ الوهلة الأولى أي منذ بناء المدينة والضوابط في ذلك ، ويتعداها إلى كيفية بناء البنايات وتوجيهها إلى وجهة معينة، ثم أماكن تواجد الأسواق، ثم طرق الزخرفة والهندسة، كما أن العمارة التي اختصت بالمجال الديني(العمارة الدينية) كانت أكثر تعميرا من باقي العمائر، لذا أوجدت عدت صروح كانت ناطقة بعظمة الفن الإسلامي.

الكلمات المفتاحية: المغرب الإسلامي، العمارة، الفن، الزخرفة، الدين

Abstract: The subject of this study revolves around architecture in the Islamic Maghreb, in terms of origin and influence on the one hand, and in terms of religious guidance in construction, art, decoration and engineering on the other hand. In this, and beyond it to how to build buildings and direct them to a specific destination, then the locations of the markets, then the ways of decoration and engineering, and the architecture that specialized in the religious field (religious architecture) was more durable than the rest of the buildings, so it created several monuments that spoke of the greatness of Islamic art .

♦ المؤلف المرسل

Keywords: Islamic Maghreb, architecture, art, decoration, religion

مقدمة: تعتبر العمارة من المظاهر الهامة التي تبرز مكانة وتحضر الدولة، وإن وجودها بفنها المعماري دليل على وجود موروث وتأثيرات معمارية تعمل على صقل نوعية العمارة للأفضل، وبالحديث عن عمارة بلاد المغرب الإسلامي فلها أصول معمارية قديمة، كما أنها امتداد ولو بنوع من التشابه في الهندسة والزخرفة، وحتى البناء لبلاد المشرق الإسلامي والأندلس.

بالرجوع إلى سبب التشابه فهو وجود قاسم مشترك ألا وهو الدين الإسلامي، وتعاليمه الخاصة بمجال العمران والعمارة والفن، فلزمت ضوابطه الشرعية السيرورة في الحياة المعمارية ونظمت طرق وأماكن البناء وكيفية الزخرفة والفن، فإلى أي مدى ساهمت التعاليم الدينية في إظهار العمارة الإسلامية لبلاد المغرب الإسلامي بشكلها الحضاري؟

1-تعريف العمارة:

يقول ابن خلدون "اعلم أن المدن قرار تتخذه الأمم عند حصول الغاية المطلوبة من الترف ودواعيه، فتؤثر الدعة والسكون وتتوجه لاتخاذ المنازل للقرار، ولما كان ذلك للقرار وللمأوى وجب أن يرى فيه دفع المضار بالحماية وجلب المنافع وتسهيل المرافق لها"[1] . العمارة كانت أهم مطلب للإنسان في حياته لذلك أوجد البيت أو المنزل أو الدار، والتي هي مسميات يمكن أن تختلف نوعا ما في مفهومها إلا أن لها نفس المدلول، كما ظهرت المدن ودعت الحاجة إلى تحصينها، وظهرت المساجد، وبحصول الحضارة والترف ظهرت الفنون التي أبهرت في مظاهرها فن العمارة الإسلامية

العمارة: لغة مأخوذة من الفعل عَمّر والعمر بالفتح وبالضم يقال: طال عمره، والعمر اسم لمدة عمارة البدن بالحياة فهو دون البقاء.[2]

العمارة اصطلاحا: هي أكثر النشاطات صلة بتجسيد الواقع الحضاري لأمة كأنها تقوم بتحديد النمط الحياتي والسلوكي خلال تأثيراتها المباشرة على البيئة البشرية وعكسها للمفاهيم والرموز المادية والمعنوية في أي فترة تاريخية[3]، كما يمكن أن تكون أسلوب

1- عبد الرحمان ابن خلدون، 2002، صفحة 33

2محمد بن محمد الحسين، 2002، صفحة 23

3- محروق إسماعيل، 2018

لتوجيه الحركة داخل الفراغات، وهي فن علمي لإقامة الكتل في أبعادها الثلاثة بشرط توفير احتياجات الناس[4]، هي الحي العظيم تنفر بإقامتها ونجعتها، وجمعها عمائر، قال الجوهر: والعمارة القبيلة والعشيرة[5]. أما فن العمارة فتعرف بأنها الفضاء المحصور بين الجدران[6].

يقدم لنا مفهوما للعمران فيصفه بأنه "التساكن والتنازل في مصر أو حلة للأنس بالعشير واقتضاء الحاجة لما في طباعهم من التعاون على المعاش، ومن هذا العمران ما يكون بدويا وهو الذي يكون في الضواحي والجبال، وفي الحلل المنتجعة في القفار وأطراف الرمال، ومنه ما يكون حضريا وهو الذي بالأمصار والقرى والمدن للاعتصام بها والتحصين بجدرانها".[7]

2- أصل الفن المعماري في بلاد المغرب:

أسس الفنيقيون أقدم حاضرتين بالمغرب ونعني بهما مدينة أوتيك قرب تونس ومدينة ليكسوس قرب العرائش إيذانا بانطلاق الفن المغربي القديم من المشرق[8]، أما الفن البربري فهو فن الشعب الذي لعب الرجل دورا بارزا في فنونه المعمارية بينما كانت السيادة في فنونه التطبيقية للمرأة المغربية التي تركت بصمتها في جميع الفنون الزخرفية[9]، كما أن هذا الفن عرف الزخارف الهندسية دون الحيوانية أو النباتية، فليس في فن البربر أثر للأشكال الحيوانية أو النباتية أصل الفن المعماري في بلاد المغرب، كما أن المغاربة اكتسبوا من الرومان سن القوانين وفن العمارة وتنظيم المدن[10]، وسبب هذا التأثير هو طول مدة الاحتلال الروماني لبلاد المغرب التي شيدوا فيها العمائر والمدن.

ويمكن القول أن الفن البربري تأثر منذ ألفي عام بمدنيات مختلفة ومزج عناصره المحلية بعناصر أخرى استمدها من القرطاجيين والرومان والبزنطيين إلى أن انصهر أخيرا ذلك التراث في بوتقة الفن العربي الإسلامي محتفظا بشخصيته الخاصة وطابعه المتميز[11]،

4- يحي وزيري، 2008، صفحة 21
5- محمد بن أحمد الأزدي الهروي، 2001، صفحة 234
6- يحي وزيري، 2008، صفحة 21
7- عبد الرحمان ابن خلدون، 2002
8- عثمان عثمان اسماعيل، 1992، صفحة 198
9- عثمان عثمان اسماعيل، 1992، صفحة 215
10- عثمان عثمان اسماعيل، 1992، صفحة 193
11- عثمان عثمان اسماعيل، 1992، صفحة 211

كما يمكن الإشارة إلى وجود تقارب بين هندسي بين المباني البربرية القديمة والطراز المغربي الذي ظهر في فجر الإسلام بالمغرب فكل منهما يرجع إلى أصل مشرقي واحد[12].

3- نشأة العمارة الإسلامية:

لما استقر الإسلام في عهد بني أمية وبلغت الدولة الإسلامية أقصى اتساع لها اقتبس المسلمون من الفنون التي سبقتهم، كالفن الساساني والبيزنطي والروماني والقوطي[13]، لكن تبقى أراء بعض المستشرقين تذكر أن العرب بعيدين عن فن العمارة وقال بعضهم بأنهم لم يكونوا إلا مقلدين ومستعيرين، وأنهم لم تكن لهم عمارة خاصة بهم تستحق الذكر، وأن كثير من أساليب العمارة انتقلت إليهم عن أمم غير إسلامية[14]، لكن المتتبع لبدايات الفن الإسلامي بأشكاله المختلفة سواء بالتشييد، أو اختيار المواقع، أو الزخرفة والهندسة، أو بجماليات الفن المعماري الإسلامي يرى أنها مستوحاة من توجيه الدين الإسلامي، وأن نشأتها كانت بنشأة الإسلام والمسلمين، ونجد الكثير من أراء المستشرقين تحاول التقليل من شأن الحضارة الإسلامية عامة محاولين نسب الحضارة التي وصل إليها المسلمون إلى أمم آخري غير إسلامية، ويمكن الإشارة إلى أن الاحتكاك الحضاري بين العرب في الإسلام وغيرهم من الأمم قد بدأ منذ عصر الخلفاء الراشدين أنفسهم عن طريق الفتوحات الإسلامية مما فتح أعينهم على ألوان جديدة من العمائر والمنشآت[15].

ولما قامت الخلافة العباسية في العراق 132هـ/656م وفي ظل هذه الدولة نضج الفن الإسلامي وأصبحت له سمة مميزة عن باقي الفنون، وعلى الجانب المعماري بالخصوص تغيرت الأساليب المعمارية والزخرفية، فكان التأثير الفارسي واضحاً حيث اتجه البناءون إلى استعمال الأجر بدل الحجارة والدعامات بدلاً من العمدة والعقود المدنية وظهور المداخل الملتوية وإقامة قبتين على المحراب، إن المعماري المسلم اقتبس من فنون الحضارات السابقة ما يتلاءم مع بيئته، وما يتماشى مع تعاليم دينه وسد احتياجاته، وصاغ تلك الأساليب المعمارية وطورها واستثمر في ذلك حتى تخلص من

12- عثمان عثمان اسماعيل، 1992، الصفحات 252-253
13- محروق إسماعيل، 2018، صفحة 21
14- كريشي أرنولد بيجر، 1984، صفحة 112
15- عثمان عثمان اسماعيل، 1992، صفحة 137

جميع التأثيرات الأجنبية، وصار طرازا قائماً بذاته وأصبح من الصعب بما كان تميز تأثيرات الفنون الأخرى[16].

وإذا كان الفن الإسلامي قد تأثر منذ نشأته بحضارة الدول التي فتحها، وبخاصة الفنين الساساني والبيزنطي، فإنه قد استبعد منها الجوانب الأسطورية كما تحاشى المحاكاة الشكلية، وعالج فنونها التجريدية مما يتفق مع تعاليم الدين الإسلامي[17].

أما الطراز المغربي فيشهد أربعة قرون من التاريخ تبدأ من عصر القادة الفاتحين للمغرب ثم بعد يدخل عصر الولاة تابعاً للدولة الأموية حيث نشطت التأثيرات الأموية في فترة تكوين الفن الإسلامي العام[18]، كما لعبت الأندلس دورا هاماً في تكوين الفن المغربي[19].

4-أسباب العمارة: وجدت العمارة لحاجة الناس إليها، فقد تناول ابن الربيع العمارة وقسمها إلى قسمين: مزارع وأمصار، فأما الأمصار فقال: فيها وهي الأوطان الجامعة والمقصودة بها خمسة أمور أولها أن يستوطنها أهلها طلبا للدعة والسكون، ثانياً حفظ الأموال فيها من الاستهلاك، ثالثا صيانة الحريم والحرم من الانتهاك، رابعاً التماس ما تدعو الحاجة إليه من متاع، خامساً ما يتعرض للكسب وطلب المادة[20].

ومن أهم أسباب العمارة مايلي:

حفظ العقل: فقد شرع بناء المساجد والمدارس والزوايا والكتاتيب.

حفظ المال: فقد شرع الله بناء الأسواق وتنظيمها، كما منع من تضيق الطرقات بالبناء فيها أو الجلوس بما يفوت مصالح الناس.

الحاجيات: ولحفظ الحاجيات أجازت الشريعة اتخاذ الحمامات والدخول إليها، نظمت كل ما يتعلق بأمر البناء.

16- محروق إسماعيل، 2018، صفحة 22

17- ثروت عكاشة، 1994، صفحة 38

18- عثمان عثمان اسماعيل، 1992، صفحة 247

19- السيد عبد العزيز سالم، 1988، صفحة 74

20- ابن ابي الربيع، 1990، صفحة 136

التحسينات: وهو كل ما يعود إلى العادة الحسنة والأخلاق الفاضلة، فكل أمر في العمارة الإسلامية يدخل في هذا الجانب هو من باب التحسين، ومن ذلك اتخاذ المنارات، والقباب، والزخرفة، والصحون، والمقصورات[21].

كذلك عامل المحاكاة والتنافس يكون سباباً وجيهاً في العمارة، فمثلاً لما شرع إدريس الثاني في بناء عاصمة جديدة بعمرانها وتخطيطها، وأسوارها، ومرافقها، ومساجدها، ودور الإمارة، كان على وعيه بضرورة إقامة قيروان جديدة بالمغرب الأقصى يحتضن الإسلام[22]، كما يمكن القول أن إنجازات السلاطين والخلفاء في ميدان العمارة والفنون كان إما تخليدا لأسمائهم وهذا ما ركز عليه المستشرقون، وإما لإظهار المكانة الحضارية التي وصلت إليها الدولة، فمثلاً برع الموحدون في تخليد ذكريات غزوات الإسلام العظيمة، فقد بنا يعقوب المنصور بعد انتصار المسلمين في وقعة الأرك منارة اشبيلية[23]، ويعرف عن قصور الموحدين في الرباط أنها من المباني الرفيعة، والمنارة البديعة، وقباب الجلوس للسادات والقصور العليا ما جعلها من متنزهات الدنيا[24].

5-مميزات العمارة

1.5-مميزات البناء والعمارة في بلاد المغرب

شهدت الفنون العربية الإسلامية ازدهارها الرائع في القرن 4هـ/10 م بالمشرق والمغرب والأندلس وبلغت عنفوانها بين القرنين السابع 7و 8هـ/13و 14م، وغطت مساحة واسعة، وعصور متعاقبة إلى أن دب إليها الهرم[25]، وبرؤية أكثر شمولية فإن مجال علوم العمران والبنيان يبدأ من مستوي تخطيط المدن وتنسيق حدائقها وفراغاتها وينتهي ببناء المباني وتصميمها الداخلي، وهناك علاقة مباشرة ما بين أسلوب تخطيط المباني وتخطيط المدن، وما يحمله العمران من دلالات وبين تكوين ثقافة أفراد المجتمع وتوجهاتهم الفكرية، كما أن للعمران والمباني دورا في تشكيل وبناء الإنسان بطريقة غير مباشرة لا يشعر به[26]، ومن السمات البارزة في مجال البناء للعمارة الإسلامية هو تركيزها على الداخل

21- بلحاج طرشاوي، 2009، الصفحات 96-98
22- عثمان عثمان اسماعيل، 1992، صفحة 264
23- محمد المنوني، 1989، صفحة 164
24- محمد المنوني، 1397هـ/1988م، صفحة 245
25- عثمان عثمان اسماعيل، 1992، صفحة 142
26- يحي وزيري، 2008، صفحة 22

أكثر من الخارج، المنزل الإسلامي المشيد حول صحن داخل ويطل على العالم الخارجي من خلال جدران عالية تتخللها نوافذ صغيرة ومجموعة من المشربيات تهيئ الانفتاح على الخارج[27]، وكذلك من أبرز الأنماط المعمارية الإسلامية أنهها تتمحور في بنائها وواجهاتها وهندستها حول وجهة، أو بتعبير أدق نحو القبلة(المسجد الحرام)[28].

أما عن بلاد المغرب الإسلامي فقد احتفظ الطراز المغربي بخصائصه، ولم تطرأ عليه تأثيرات خارجية إلا في القرن5ه/11م عندما ظهرت التأثيرات الأندلسية، فقد تأثر الطراز المغربي في الوهلة الأولى بالفن والعمارة المشرقية حيث انتقلت هذه التأثيرات إلى عمارة المغرب وأصبح أكثر ظهورا بها، ومن ذلك على سبيل المثال أن نظام البائكات التي تمتد متعامدة على جدران القبلة قد ظهر أولاً في المسجد الأقصى بالقدس ثم انتقل إلى بلاد المغرب[29]، كذلك كانت بعض المباني في بلاد المغرب تحمل مسحة التجديد فقد بنيت مدينة الرباط بالمغرب الأقصى على هيئة الإسكندرية من حيث الاتساع وحسن التقسيم وإتقان البنيان وتحصينها وتحسينها[30]، كما أن عمارة الأدارسة في جامع القرويين بعقودها الموازية للقبلة شأن المساجد بالمشرق مثل مسجد دمشق وبعلبك وبعضها في مصر، وقد استمرت عمارة الطراز المغربي تلتزم بنظام العقود الموازية إلى بداية عهد المرابطين الذين استخدموا العقود العمودية على القبلة، كذلك في مدينة نكور ايم الخليفة الوليد الأموي اتجهت الجهود إلى بناء رباط يحتوي على مسجد بمرافقه يستوحي تصميمه من جامع الإسكندرية بأسلوب معماري بسيط في نطاق الفن الإسلامي الشرقي، ومن هذا الطراز مسجد أغمات عيلانة سنة 85ه الذي يكون أول مسجد إسلامي بالمغرب الأقصى[31].

كما ميز العمارة في بعض المناطق من بلاد المغرب البساطة، فقد كانت مظاهرها واضحة في العاصمة الرستمية تاهرت، حيث أن الحاكم الرستمي عبد الرحمان قام ببناء جامع المدينة بنفسه، وعندما زاره وفد من الكوفة وجدوا أن شخصاً يعجن له بينما يتولى هو بنفسه البناء[32]، أما عن تأسيس فاس فكن ذلك إذاناً بتأسيس صرح الطراز

27- ثروت عكاشة، 1994، صفحة 61
28- يحي وزيري، 2008، صفحة 20
29- أحمد البهنسي، 1996، صفحة 19، 18
30- محمد المنوني، 1989، صفحة 163
31- عثمان عثمان اسماعيل، 1992، الصفحات 252-297
32- أحمد البهنسي، 1996، صفحة 82

المغربي الحقيقي في العمارة والفنون التطبيقية بربوع الدولة، ويستمر هذا الطراز في إمارة الأدارسة وبعد سقوطها وممالكهم شمالاً حتى تاريخ انقراض دولتهم الثانية بالشمال[33].

وقد اشتركت العمارة في بلاد المغرب والأندلس في كثير من صفات تشكيل الفراغ وتصمم الأعمدة والعقود وزخارف الحصن المفرغ[34]، كما تتميز عمارة جامع القرويين في القرن 4هـ/10م بأنها تجمع بين خصائص العمارة الزناتية المتأثرة بالطراز الفاطمي، وبين الطراز الأندلسي الذي ظهر في بعض عناصر المساجد[35]، كذلك في جامع الأندلسيين بالمغرب نجد التأثير الأندلسي واضحاً ففي المئذنة التي تعتبر الأثر الأندلسي الأموي في عمارة الجامع[36]، ويرجع هذا التأثر على محاكات التطور الحضاري الذي كانت عليه الأندلس.

ولقد بلغت العمارة الإسلامية والفنون عهرها الذهبي مع ظهور الطراز المغربي الأندلسي التي تعود ملامحه إلى جامع قرطبة سنة 169هـ/785م الذي بناه عبد الرحمان الداخل[37]، كما تظهر التأثيرات الأندلسية بجدية بعد موقعة العقاب سنة 609هـ/13212م حيث ترتب عن ذلك هجرة الأندلسيين إلى بلاد المغرب، وتظهر هذه التأثيرات في الأبراج المستديرة مثل قلعة (أمرجو) بالمغرب الأقصى وأسوار مدينة مراكش[38].

وكذلك كانت للمساكن الإسلامي خصوصية واضحة بحيث يفصل جناح النوم، وأهل البيت عن جناح المعيشة والزوار، ويكون ذلك إما بالفصل أفقياً عن طريق وجود مدخل متوسط للوحدة السكنية[39].

وقد حمل الفن المعماري في ظل الإسلام تعبيراً معمارياً جديداً إذ ربط هذا الفن بين المسجد والكعبة في مكة المكرمة، وتزاوج التعبير المعماري الأول الذي أحسه ساكن

33- عثمان عثمان اسماعيل، 1992، صفحة 252
34- ثروت عكاشة، 1994، صفحة 22
35- أحمد البهنسي، 1996، صفحة 82
36- نجار ليلي، 1982
37- محروق إسماعيل، 2018، صفحة 22
38- أحمد البهنسي ، 1996، صفحة 123
39- يحي وزيري، 2008، صفحة 121

البادية من صلته بالسماء من خلال صحن أعلاه مكشوف مع التعبير المعماري الجديد المستوحي من صلة العابد بالأرض[40].

2.5- مميزات فن الزخرفة في بلاد المغرب:

للزخرفة الإسلامية عدت مميزات، ويشير إليها العالم الفرنسي بروجوان bougeoin إلى أنه في الفن الإغريقي عناية بالنسب والأشكال التجسيمية وبدقائق الجسم الإنساني والحيواني، بينما عرف الفن الياباني دقة في تمثيل المملكة النباتية، ورسم الأوراق والفروع والزهور، أما الفن الإسلامي فقد ميزه الأشكال الهندسية المتعددة الأضلاع بالأشكال[41]، وذلك للأثر الذي كان عليه موقف الإسلام من النحت والتصوير فاتجه المسلمون إلى الزخارف النباتية والهندسية والكتابة[42]، كما عمد الفنان المسلم إلى البعد عن تقليد الطبيعة في رسم الجذوع والأوراق والنباتات معلناً مبدأ التجريد والرمز في الفنون الإسلامية، وابتكر في مرحلة حاسمة لتطور فنونه أسلوباً زخرفياً جديداً هو أسلوب التوشيح أو التوريق كما هو معروف بالمغرب والأندلس[43].

لذا فقد تأثر العنصر النباتي في الزخارف الإسلامية تأثراً كبيراً بانصراف المسلمين عن استحياء الطبيعة وتقليدها تقليداً صادقاً أميناً، فكانوا يستخدمون الجذع والورقة لتكوين زخارف تمتاز بما فيها من تكرار وتقابل وتناظر وتبدو عليها مسحة هندسية جامدة تدل على سيادة مبدأ التجريد والرمز في الفنون الإسلامية[44].

وأما عن سبب الاعتماد عن الزخرفة النباتية فإن الفنان المسلم اكتشف بشكل واعٍ بأن هدف الفن ليس محاكاة الطبيعة أو تقليد الكائنات الحية، وإنما إيجاد عالم مستقل من الأشكال والألوان للتعبير عن ما وراء الواقع، وبالتالي فاتجاه إلى الزخرفة النباتية ناتج عن رغبة داخلية واعية وعن نظرة فكرية وروحية نابعة عن الإسلام، كما أن وحدة الفن الإسلامي أدت إلى ارتباط المنشآت الفنية بمعاني روحيه تتعلق بتوجيهات الإسلام[45]، وقد فرض هذا الفن نفسه على الأوروبيين وافتتنوا به، وأطلقوا عليه اسم

40- ثروت عكاشة، 1994، صفحة 22
41- زكي محمد حسين، 1990، صفحة 35
42- عثمان عثمان اسماعيل، 1992، صفحة 119
43- عثمان عثمان اسماعيل، 1992، صفحة 129
44- زكي محمد حسن، 2004، صفحة 36، 35
45- محروق إسماعيل، 2018، صفحة 27

Arabesque[46]، كما سّار الفن الإسلامي في تشابه إلى حد كبير في سائر البلاد الإسلامية على شيء طفيف من التباين اليسير الذي تحمله كل بيئة وتختص به وتمليه مواهب أهلها، ويرد البعض سر هذه الوحدة التي تجمع الفنون الإسلامية إلى توحد الخط العربي الذي يكتب به المصحف الشريف، وهو عامل هام لكنه ليس الوحيد[47].

كما يمكن الإشارة إلى ميل الفنانين المسلمين في بلاد المغرب والأندلس إلى تغطية المساحات وعدم تركها من دون زينة أو زخرفة فإن من أكثر ما يلفت النظر في العمائر والتحف الفنية الإسلامية ازدحام الزخرفة وكثرتها، واتصالها حتى تغطي المساحة كلها أو جزءاً منها، ولذلك كانت الفنون الإسلامية فنوناً زخرفية قبل كل شيء، وكانت فضلاً عن ذلك أعظم الفنون في الزخرفة، لذا فإن الميزة في الفنون الإسلامية هي تكرار الموضوعات الزخرفية على العمائر والتحف الإسلامية تكراراً يلفت النظر[48].

6-التوجيه الديني للعمارة في بلاد المغرب الإسلامي:

لقد كان ظهور العمارة الإسلامية وبروزها إذاناً بميلاد فن معماري وزخرفي جديد كان التوجيه فيه بالدرجة الأولى يرجع إلى الدين فيذكر الماوردي وابن الربيع في تصويرهم عن المدينة الإسلامية يرجع إلى المعطيات المأخوذة من الضوابط الشرعية، وأن بناء مسجد جامع يكون في وسطها ليقرب على الجميع، وهو أحد ثمانية شروط لإنشاء مدينة إسلامية[49]، ومن أولى محطات العمارة والبناء في الجانب الديني هو الخضوع الروحي، فكانت التقوى هي أساس البنيان والعمارة مصداقاً لقوله تعالي ﴿**أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾ [50]، فقد استجاب الفن الإسلامي لاتجاه الدين فلم يستخدم التصوير لنشر التعاليم الدينية كالمسيحية أهمل فن اللوقات وعمل التماثيل، واقتصر على تزويد المؤلفات العلمية والأدبية، فأفرغ عبقريته في فنون الزخرفة الكتابية،

46- عثمان عثمان اسماعيل، 1992، صفحة 129
47- ثروت عكاشة، 1994، الصفحات 22-33
48- زكي محمد حسن، 2004، صفحة 44
49- يحي وزيري، 2008، صفحة 188
50- سورة التوبة الآية 109

والهندسة النباتية فبلغ فن الخط العربي جمالاً زخرفياً لم يبلغه فن آخر في تاريخ الإنسانية[51].

ومن أجل حفظ الدين الإسلامي تم اختيار موقع المدن، وبناء المرافق العامة، واختيار موضع المسجد وإبراز دوره داخل المجتمع، وعند بناء المساكن والمرافق روعيت فيها القيم والمبادئ الإسلامية على مستوى البناء والوظيفة والمقاس[52]. كذلك كانت التوجيهات الدينية واضحة في طرق تعين مراكز البنايات وفصلها عن الأسواق، وأن يكون عن أطراف المدينة فقال الرسول الكريم ﷺ: "**هَذَا سُوقُكُمْ ، فَلَا يُضَيَّقُ ، وَلَا يُؤْخَذُ فِيهِ خَرَاجٌ**" وذلك عندما جعل للمدينة المنورة سوقا.

كما يتدخل الدين في توجيه المباني نحو وجهة معينة شكلت قدسية لدى كافة المسلمين في أصقاع الأرض، فتوجيه المباني لم يكن محض الصدفة، بل كان نحو القبلة، وإن فكرة جعل البيوت اتجاهها موجودة منذ عهد سيدنا موسى عليه السلام من أجل تسهيل إقامة الصلاة بداخلها لأتباعه الذين أمنوا به ثم يأتي سيدنا رسول الله ﷺ ليؤكد هذا المفهوم[53]، فعن أبي أيوب الأنصاري أن الرسول ﷺ قال: "**لا تستقبلوا القبلة بغائط أو بول ولا تستدبروها ولكن شرقوا أو غربوا**". أما عن عدم التوجه للقبلة يفقد المجتمع المسلم أهم العوامل التي تميز شخصيته حيث انه يشعر اتجاهها برباط روحي دائم بينه وبين مكة، وليس في المسجد فقط بل في بيته اثناء أداء الصلاة[54].

أما ما ميز تداخل الجانب الروحي والعمارة بفنها هو "الصحون" المتسعة والصحن هو الفراغ المكشوف المحدد بواسطة الجدران أو المباني، وهو الحلقة الرابطة المميزة لكل العمائر الدينية أو المدينة الإسلامية، وتظهر وظيفته في أن يكون المسلم على اتصال دائم بالسماء[55]، ففي البداية عندما كان الجامع مسطحاً من الأرض مسوراً غير مسقوف لم يكن ما يحجب نظرة المصليين إلى السماء، حتى إذا تطلب الأمر تغطية مكان الصلاة في الجامع اتقاء حرارة الشمس، وتقلبات العوامل المناخية في البلاد المختلفة،

51- عثمان عثمان اسماعيل، 1992، صفحة 127
52- بلحاج طرشاوي، 2009، صفحة 94)
53- يحي وزيري، 2008، صفحة 79
54- يحي وزيري، 2008، صفحة 82
55- محروق إسماعيل، 2018، صفحة 24، 23

فحرص المعماري المسلم على أن تكون نظرة المسلم إلى السماء غير محجوبة فشطر المسجد شطريين أحدهما مسقوف للصلاة والأخر مكشوف وهو الصحن[56].

خاتمة: عند بلوغ الدولة الإسلامية أوج قوتها وبفتحها للإمبراطوريات مختلفة تأثرت بالفنون المعمارية لتلك الإمبراطوريات، وبطبيعة الحال انتقلت تلك التأثيرات إلى أصقاع البلاد الإسلامية وبما فيها بلاد المغرب الإسلامي، بيد أن بلاد المغرب كانت لها رواسب معمارية منذ العصر القديم أوحت للمعماريين المسلمين المزج بين التأثيرات المشرقية والمغربية وبما فيها بلاد الأندلس التي كان لها دور بازر في فن العمارة لبلاد المغرب.

كما أن بلاد المغرب اكتسبت مميزات معمارية هامة في مجال البناء والزخرفة؛ والتي يمكن الحكم عليها بتشابهها نوعاً ما في كامل البلاد الإسلامية خاصة في مجال الهندسة والزخرفة النباتية، ويرجع ذلك إلى الخط العربي الذي وحد من الفن الإسلامي.

أما عن الدليل الديني فقد كان بارزاً بوضوح منذ الوهلة الأولى، فكانت المدن تشيد بالضوابط الشرعية وكانت البنايات تقام وفق التوجيه الإسلامي وخير دليل على ذلك هو التوجه الكامل للبنايات للقبلة.

المراجع:

أحمد البهنسي عمارة المغرب والأندلس في العصر الإسلامي، رسالة دكتوراه، كلية العلوم الانسانية، جامعة عين شمس، 1996

السيد عبد العزيز سالم، العمارة الإسلامية في الأندلس وتطورها .الكويت :عالم الفكر. (د، ط)، 1988.

بلحاج طرشاوي، العمران ومقاصد الشريعة، رسالة دكتوراه، كلية الأدب والعلوم الإنسانية، جامعة تلمسان، 2009.

ثروت عكاشة، القيم الجمالية في فن العمارة الإسلامية. القاهرة :دار الشروق، ط1، 1994.

زكي محمد حسن، في الفنون الإسلامية. القاهرة: دار الكتب العلمية، (د، ط)، 2004.

عبد الرحمان ابن خلدون، مقدمة، تر، علي عبد الواحد، القاهرة: دار النهضة، 2019.

عثمان عثمان اسماعيل، تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصي .الرباط: الهلال العربي للنشر، 1992.

56- ثروت عكاشة، 1994، صفحة 26

كريشي أرنولد بيجر، تراث الإسلام في الفنون الفرعية والتصوير. دمشق :دار الكتاب العرب 1984.

محروق إسماعيل. (2018) العمارة الإسلامية في كتب رحالة المغرب الإسلامي من القرن 7هـ إلى القرن 10هـ 13 /م حتى 16م .، كلية العلوم الإنسانية، جامعة تلمسان.

محمد المنوني، العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين .الرباط: دار المغرب1397) .هـ1988/م.

محمد المنوني، حضارة الموحدين .الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، 1989م.

محمد بن أحمد الأزدي الهروي تهذيب اللغة، بيروت: دار التراث العربي، .2001 م.

محمد بن محمد الحسين .() .تاريخ العروس في جواهر، بيروت: دار الهداية، 2002.